كبيرة ، حركة مستقلة للطبقة التي كانت السالفة ، المتطورة الى هذا الحد او ذاك ، للبروليتاريا العصرية فهكذا كانت حركة المعمدانيين الجدد (٦٧) وتوماس مونتزر اثناء الاصلاح وحرب الفلاحين في المانيا ، وحركة السوائيين الحقيقيين (٦٨) اثناء الثورة الانجليزية الكبرى ، وبابوف اثناء الثورة الفرنسية الكبرى هذه النضالات الثورية المسلحة التي كانت تقوم بها طبقة لم يكتمل تكوينها كانت تصحبها نظريات مناسبة اللوحات الطوبوية عن النظام الاجتماعي الامثل في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٦٩) ؛ نظريات شيوعية صريحة (موريللي ، مابلي) في القرن الثامن عشر ولم يقتصر مطلب المساواة على الحقوق السياسية ، انما كان يشمل اوضاع الفرد الاجتماعية ؛ واعطي البرهان لا على ضرورة الغاء الامتيازات الطبقية فحسب ، بل ايضاً على ضرورة الغاء الفوارق الطبقية . وكان اول شكل ارتداه المذهب الجديد هو شكل شيوعية متقشفة ، منسوخة عن سبارطه تحرم التمتع بجميع اطايب الحياة ثم ظهر الطوبويون الثلاثة الكبار : سان-سيمون ، الذي كان يقر لحد ما بالميول البرجوازية الى جانب الميول البروليتارية ، وفوريه واوين ؛ وقد عاش اوين في البلد الذي تطور فيه الانتاج الرأسمالي اكثر مما في غيره من البلدان ؛ وبتاثير التناقضات الناجمة عن هذا الانتاج الرأسمالي ، وضع اوين اقتراحاته لالغاء الفوارق الطبقية بصورة نظام مرتبط بالمادية الفرنسية مباشرة

ويتصف هؤلاء المفكرون الثلاثة بصفة مشتركة ، هي كونهم لا يدّعون بتمثيل مصالح البروليتاريا التي كانت قد تكونت تاريخياً في ذلك الوقت . وعلى غرار المنورين لا ينزعون الى تحرير طبقة اجتماعية معينة قبل غيرها ، بل الى تحرير الانسانية باسرها

دفعة واحدة . وعلى غرارهم ، يشاؤون ان يبسطوا سيادة العقل والعدالة الخالدة ؛ الا ان الفرق بين هذه السيادة وسيادة العقل عند المنورين كالفرق بين الثرى والثريا . فالعالم البرجوازي ، القائم على مبادئ هؤلاء المنورين ، جائر ومخالف للعقل مثل الاقطاعية وسائر الانظمة الاجتماعية السابقة ، ولذا ينبغي القذف به هو ايضا في مقلب النفايات . واذا كان العقل الحقيقي والعدالة الحقيقية لم يحكما العالم حتى الآن ، فلأنهما لم يفهما الفهم اللازم . ذلك بكل بساطة ، لان العبقري الذي كان لا بد له ان يكشف الحقيقة لم يظهر من قبل ، ولكنه ظهر الآن واكتشف الحقيقة . وظهور هذا العبقري الآن واكتشافه للحقيقة الآن بالذات ، ليسا ابدا نتيجة ضرورية لسير التطور التاريخي العام وحدثا محتوما ، انما هما من حسن الصدفة فقط فقد كان من الممكن تماما ان يولد هـذا العبقري قبل ٥٠٠ سنة ، مثلا ، فيجنب الانسانية ٥٠٠ سنة من الاخطاء والنزاعات والآلام

لقد رأينا كيف جعل الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر ، ممهدو طريق الثورة ، من العقل القاضي الاعلى الوحيد لكل ما هو موجود . كان ينبغي ، بنظرهم ، بناء المجتمع والدولة على العقل ، وازالة كل ما هو مخالف للعقل الخالد بدون شفقة وقد رأينا ايضا ان هذا العقل الخالد لم يكن في الواقع سوى الفهم المجعول مثاليا عند المواطن من الطبقة المتوسطة الذي كان آنذاك بالضبط بسبيل ان يصير برجوازيا . ولكن ، حين حققت الثورة الفرنسية مجتمع العقل هذا ودولة العقل هذه ، اتضح ان المؤسسات الجديدة ، وان جاءت عقلانية بالقياس الى النظام الماضي ، لم تكن معقولة اطلاقا فقد اخفقت دولة العقل اخفاقا تاما . وتحقق العقد الاجتماعي الذي وضعه روسو ، في عهد الارهاب ؛ وللخلاص

من هذا العهد ارتمت البرجوازية ، وقد فقدت الثقة بكفاءتها السياسية ، في لجة ارتشاء الديريكتوار (٧٠) اولا ، ثم استظلت ، في نهاية الامر ، كنف الاستبداد النابليوني . وتحول السلام الابدي الموعود به الى سلسلة لا نهاية لها من حروب الفتوحات . ولم يكن مصير مجتمع العقل بالمصير الافضل . فبدلا من ان يجد التناقض بين الاغنياء والفقراء حلا له في الرفاهية العامة ، تفاقم واستشرى من جراء الغاء امتيازات الحرف وغيرها من الامتيازات التي كانت بمثابة جسر فوق هذا التناقض ، ومن جراء الغاء مؤسسات الكنيسة للبر والاحسان التي كانت تلطف من شدته بعض الشيء ان «حرية المُلكية» من القيود الاقطاعية ، ان هذه «الحرية» التي تحققت الآن فعلا قد اصبحت بالنسبة للبرجوازي الصغير والفلاح حرية بيع هذه الملكية الصغيرة التي تضغط عليها مزاحمة الرأسمال الكبير والملكية العقارية الكبيرة بشدة فائقة ، من هؤلاء الطواغيت بالذات ؛ وهكذا تحولت هذه «الحرية» بالنسبة للبرجوازيين الصغار وللفلاحين الى حرية من الملكية . وجاء تطور الصناعة بسرعة على اساس رأسمالي فجعل من فقر الجماهير الكادحة وآلامها الشرط الضروري لوجود المجتمع واخذ النقد يصبح اكثر فاكثر ، على حد قول كارليل ، العنصر الجامع الوحيد لهذا المجتمع . وسنة بعد سنة ازداد عدد الجرائم . ومع ان العيوب الاقطاعية التي كانت تزهو وتتباهى فيما مضى في رابعة النهار ، لم يتم القضاء عليها ، الا انها اقصيت الى العتمة ؛ ومحلها ، ازدهرت العيوب البرجوازية التي كانت لا تعيش فيما مضى الا سراً ، وتشعبت بكثرة . وتحولت التجارة اكثر فاكثر الى احتيال . وتجسد «الاخاء» الذي اعلنه الشعار الثوري (٧١) في الغش والحسد الناجمين عن المزاحمة . وحلت الرشوة محل الاضطهاد بالعنف ،

وحلت النقود محل السيف بوصفها اهم وسيلة للسلطة الاجتماعية . وانتقل حق الليلة الاولى من الاقطاعيين الى البرجوازيين اصحاب الفبارك . وانتشر البغاء بنسب غير معروفة حتى ذاك . وظل الزواج ، كما في السابق ، الشكل الشرعي ، الرداء الرسمي للبغاء ، واكتمل بفيض من الزناء الفاحش . وبكلمة ، ظهرت المؤسسات السياسية والاجتماعية التي اقامها «انتصار العقل» بمثابة مساخر مرّة تخيب الآمال ، بالمقارنة مع وعود المنورين البراقة . ولم ينقص سوى من يتحققون من خيبة الامل ، وقد ظهر هؤلاء في عتبة القرن الجديد . ففي ١٨٠٢ ، اصدر سان-سيمون مؤلفه «رسائل من جينيف» ؛ وفي ١٨٠٨ ، اصدر فوريه مؤلفه الاول ، رغم ان اساس نظريته يعود الى عام ١٧٩٩ ؛ وفي اول كانون الثاني (يناير) ١٨٠٠ ، استلم روبرت لوين ادارة نيو-لانارك (٧٢)

ولكن ، في ذلك الحين ، كان الاسلوب الرأسمالي للانتاج والتضاد بين البرجوازية والبروليتاريا لا يزالان في الاقمطة كانت الصناعة الكبيرة في اولى خطواتها في انجلترا ، ومجهولة في فرنسا . والحال ان الصناعة الكبيرة هي وحدها التي تطور ، من جهة ، النزاعات التي تجعل من الضروري ضرورة قاهرة اجراء انقلاب في اسلوب الانتاج والغاء طابعه الرأسمالي — وهذه النزاعات لا تقوم فقط بين الطبقات التي انشاتها هذه الصناعة الكبيرة ، بل تقوم ايضاً بين القوى المنتجة واشكال التبادل التي ولدتها الصناعة الكبيرة ؛ ومن جهة اخرى ، تعطي هذه الصناعة الكبيرة ، خلال تطور القوى المنتجة تطوراً هائلا ، الوسائل اللازمة لحلّ هذه النزاعات فاذا كانت النزاعات الناجمة عن النظام الاجتماعي الجديد لم تكد ترى النور في عام ١٨٠٠ ، فبالاحرى الوسائل اللازمة لحلها . ومع ان الجماهير الباريسية غير المالكة

استولت على السلطة مدى لحظة ، اثناء عهد الارهاب ، واستطاعت بالتالي ان تؤدي بالثورة البرجوازية الى الانتصار على البرجوازية نفسها ، الا انها لم تفعل بذلك غير ان اثبتت انها لا تستطيع اطلاقا ان تسيطر مدة طويلة في ظل العلاقات القائمة في ذلك الوقت . فان البروليتاريا التي كانت قد برزت للتو من الجماهير غير المالكة بوصفها جنين طبقة جديدة والتي كانت عاجزة تماما عن العمل السياسي المستقل ، كانت تبدو مجرد فئة مظلومة ومعذبة ، ولا تمكن مساعدتها في خيرة الاحوال ، نظراً لعجزها عن مساعدة نفسها بنفسها ، الا من الخارج ، من عل

وقد حدد هذا الوضع التاريخي ايضا وجهات نظر مؤسسي الاشتراكية فان عدم نضوج الانتاج الرأسمالي وعدم نضوج العلاقات الطبقية قد قابلتهما نظريات غير ناضجة فان حل المعاضل الاجتماعية ، الذي كان ما يزال في طيات العلاقات الاقتصادية التي لما تنضج وتكتمل ، قد لُفّق في الدماغ تلفيقا ولم يكن النظام الاجتماعي حافلا بغير النواقص والعيوب ؛ فكانت ازالتها قضية العقل المفكر . ولذا كان ينبغي ابتداع نظام جديد ، ارقى ، للبنيان الاجتماعي ؛ وكان ينبغي فرض هذا النظام على المجتمع القائم من الخارج ، بالدعاية ، وبمثال التجارب البيانية ، حين يكون ذلك مستطاعا . ولذا كان محكوما على هذه الانظمة الاجتماعية الجديدة مسبقا الاّ تكون سوى طوبويات ؛ وكلما صيغت بمزيد من التفاصيل ، كان لا بدّ لها ان تزداد توغلا في ميدان الخيال الصرف .

بعد ما سبق قوله ، لن نتناول ابدا بمزيد من التفاصيل هذا الجانب من المسالة الذي غدا الآن كليا في طيات الماضي لينقب البقالون الادباء بزهو وخيلاء في هذه المستغربات التي

تحملنا اليوم على الابتسام ، وليعجبوا بصفاء ذهنهم هم بالقياس الى مثل هذا «الهوس» اما نحن ، فتفرحنا اكثر بكثير بذور الافكار العبقرية والخواطر العبقرية التي تشق طريقها عند كل خطوة ، عبر الغطاء الخيالي ، والتي لا يراها هؤلاء التافهون الضيقو الافق

كان سان-سيمون ابن الثورة الفرنسية الكبرى ؛ وكان لم يبلغ الثلاثين من العمر عندما نشبت . كانت الثورة انتصار الطبقة الثالثة (٧٣) ، اي اغلبية الامة **المشغولة** في الانتاج والتجارة ، على الطبقتين المتميزتين ، **البطالتين** حق ذاك ، طبقة النبلاء وطبقة الاكليروس . ولكنه سرعان ما تبين ان انتصار الطبقة الثالثة ليس غير انتصار قسم صغير من هذه الطبقة ، اذ انه اقتصر على الظفر بالسلطة السياسية من قبل الفئة المميزة اجتماعيا من الطبقة الثالثة ، اي من قبل البرجوازية المالكة . وفضلا عن ذلك ، كانت هذه البرجوازية قد تطورت بسرعة في مجرى الثورة ، من جهة ، بالمضاربة على اراضي النبلاء والكنيسة ، المصادرة ثم **المباعة** ، ومن جهة اخرى ، بغش الامة بالتسليمات الحربية فان سيادة هؤلاء المضاربين في ظل الديريكتوار هي التي ساقت فرنسا والثورة الى شفير الهلاك واعطت بالتالي نابليون ذريعة للقيام بانقلابه وهكذا اتخذ التضاد بين الطبقة الثالثة والطبقتين المميزتين ، في رأس سان-سيمون ، شكل تضاد بين «العمال» و«البطالين» . فالبطالون لم يكونوا ممثلي الطبقتين المميزتين السابقتين وحسب ، بل ايضا جميع من يعيشون من ريعهم دون ان يشتركوا في الانتاج والتجارة اما «العمال» فلم يكونوا العمال الاجراء وحسب ، بل ايضا الصناعيين والتجار واصحاب المصارف ولم يكن هنالك اي شك في ان البطالين قد فقدوا القدرة على القيادة الفكرية وعلى

السيادة السياسية ، وهذا ما اكدته الثورة نهائيا . اما ان المعدمين لم يكونوا يتحلون بهذه القدرة ، فذلك ، برأي سان-سيمون ، ما اثبتته تجربة عهد الارهاب . فمن ذا الذي كان لا بد له ، في هذه الحال ، ان يقود ويسود ؟ برأي سان-سيمون ، العلم والصناعة ، اللذان تجمع بينهما رابطة دينية جديدة ، «دين مسيحي جديد» ، صوفي حتما ، قائم على تسلسل مراتبي صارم ، ومدعو الى بعث وحدة المفاهيم الدينية ، التي تحطمت منذ عهد الاصلاح . ولكن العلم انما هو العلماء ؛ اما الصناعة فهي في المقام الاول البرجوازيون النشطاء ، الصناعيون والتجار واصحاب المصارف يقينا انه كان ينبغي لهؤلاء البرجوازيين ان يصبحوا نوعا من موظفين اجتماعيين ، من اناس يتمتعون بثقة المجتمع كله ، ولكنه كان ينبغي عليهم مع ذلك ان يحتفظوا ازاء العمال بوضع يخولهم اصدار الاوامر ويمنحهم امتيازات اقتصادية اما اصحاب المصارف فانهم هم الذين كان ينبغي عليهم ان يضبطوا كل الانتاج الاجتماعي بضبط التسليف .—وقد كانت هذه النظرة تناسب تماما تلك المرحلة التي كانت فيها الصناعة الكبيرة في فرنسا ، ومعها التضاد بين البرجوازية والبروليتاريا ، لا يزالان بعد في طور النشوء . ولكن ما يشير اليه سان-سيمون بخاصة انما هو الامر التالي : ان ما يهمه في المقام الاول في كل مكان وزمان ، هو مصير «الطبقة الاكثر عدداً والاشد فقراً» («la classe la plus nombreuse et la plus pauvre»).

لقد سبق لسان-سيمون ان قرر في مؤلفه «رسائل من جينيف» انه

«ينبغي على جميع الناس ان يشتغلوا»

واشار في هذا المؤلف الى ان سيطرة الارهاب في فرنسا كانت سيطرة الجماهير غير المالكة .

وهتف سان-سيمون متوجها الى هذه الجماهير «انظروا الى ما جرى في فرنسا عندما سيطر هناك رفقاؤكم فقد خلقوا المجاعة»

ولكن ان يفهم المرء ، في عام ١٨٠٢ ، ان الثورة الفرنسية هي نضال طبقي ليس بين النبلاء والبرجوازية وحسب بل ايضا بين النبلاء والبرجوازية **وبين غير المالكين** ، الا ان هذا الفهم كان بمثابة اكتشاف عبقري من المرتبة العليا . وفي ١٨١٦ اعلن سان-سيمون ان السياسة هي علم الانتاج وتنبأ بامتصاص الاقتصاد للسياسة كليا ان الفكرة القائلة بان الاوضاع الاقتصادية هي اساس المؤسسات السياسية لا تبدو ، هنا ، الا بمثابة بذرة غير ان سان سيمون عرض هنا بوضوح تام الفكرة القائلة بان حكم الناس سياسيا يجب ان يتحول الى ادارة للاشياء والى قيادة لعمليات الانتاج ، اي الفكرة القائلة «بالغاء الدولة» والتي اثيرت حولها ضجة كبرى في الاونة الاخيرة . وفي ١٨١٤ ، بعد دخول الحلفاء الى باريس فوراً * وايضا في ١٨١٥ ، خلال حرب المئة يوم (٧٤) ، اعلن سان-سيمون ، بنفس التفوّق في الآراء على معاصريه ، ان الضمانة الوحيدة للتطور السلمي والازدهار في اوروبا هي التحالف بين فرنسا وانجلترا ، وبين هذين البلدين والمانيا . يقيناً انه كان لا بد من قدر كبير من الشجاعة والبصيرة التاريخيـــة لدعوة الفرنسيين في عـام ١٨١٥ الى التحالف مـع المنتصرين في واترلو (٧٥)

واذا كنا نجد عند سان-سيمون سعة عبقرية في الآراء ، تتيح لنا ان نستشف فيها بذور الافكار غير الاقتصادية الصرف التي عرضها الاشتراكيون بعده ، ان نرى بذور جميع هذه الافكار

---

* ٣١ آذار (مارس) ١٨١٤ . الناشر .

تقريباً ، فاننا نجد عند فوريه انتقاداً للنظام الاجتماعي القائم ، انتقاداً يجمع بين حدة الذكاء الفرنسي الاصيل والعمق الكبير في التحليل . فهو يتمسك بتلابيب البرجوازية ، وانبيائها الملهمين ما قبل الثورة ومتملقيها المرتشين ما بعد الثورة ويكشف النقاب بلا رحمة عن بؤس العالم البرجوازي ، المادي والمعنوي ؛ ويقارن هذا البؤس بوعود المنورين السابقين الخلابة : وعودهم بمجتمع يسود فيه العقل وحده ، بحضارة توفر السعادة للجميع ، وبآرائهم عن قابلية الانسان اللامتناهية للترقي والاكتمال ؛ ويفضح فراغ تعابير وصيغ الايديولوجيين المعاصرين له الرنانـــة الزاهية ، ويبين اي واقع بائس يقابل تعابيرهم الرنانة ، ويصب جام سخريته على افلاس هذه التعابير التام . ان فوريه ليس بناقد وحسب ، بل انه ايضاً ، لتفاؤل طبيعته ، هجاء ساخر ، وحتى من اكبر الهجائين في كل العصور . فهو يرسم بكلمات لاذعة ساخرة دقيقة احتيالات المضاربة التي ازدهرت بعد انحطاط الثورة ، كما يرسم الروح التجارية الخسيسة التي اتصفت بها كل التجارة الفرنسية في زمنه وانه لاشد لدعاً الانتقاد الذي سلطه على الشكل البرجوازي للعلاقات الجنسية ووضع المرأة في المجتمع البرجوازي وهو اول من اعلن ان درجة التحرر العام في كل مجتمع معني تقاس بدرجة تحرر المرأة ولكن حيثما يبدو فوريه بكل عظمته ، انما في مفهومه عن تاريخ المجتمع فهو يقسمه الى اربع مراحل من التطور : الوحشية ، البطريركية ، البربرية ، المدنية ؛ والمرحلة الاخيرة من هذا التطور تطابق عنده ما يسمى اليوم بالمجتمع البرجوازي اي النظام الاجتماعي الذي تطور منذ القرن السادس عشر ويبين فوريه ان

«النظام المتمدن يرفع كل رذيلة ، تمشت عليها البربرية ، من

النمط البسيط الى نمط مركب ، مزدوج المعنى ، منافق ، ريائي» ، وان المدنية تتحرك ضمن «حلقة مفرغة» ، ضمن تناقضات تعيد انتاجها بلا انقطاع ، دون ان تتمكن من التغلب عليها ، ولهذا السبب تتوصل دائما الى عكس ما كانت تسعى اليه او ما كانت تدعي السعي اليه . فهكذا ، مثلا ،

« ان الفقر ينشأ عن الوفرة نفسها في المدنية»

وهكذا نرى ان فوريه متمكن من الديالكتيك تمكن معاصره هيغل منه . وخلافا للتعابير الطنانة حول قابلية الانسان اللامتناهية للترقي والاكتمال ، يؤكد فوريه بصورة ديالكتيكية ايضا ان لكل طور تاريخي مرحلة صعود تليها مرحلة هبوط ، ويطبق وجهة النظر هذه على مستقبل البشرية جمعاء . وكما ان كانط ادخل في علم الطبيعة فكرة زوال الكرة الارضية في المستقبل ، كذلك ادرج فوريه في مفهوم التاريخ فكرة زوال الانسانية في المستقبل .

وبينا عاصفة الثورة المطهرة تجتاح فرنسا ، كان يجري في انجلترا انقلاب ، اقل صخبا وضجيجا ، ولكنه ليس اقل قوة وشدة . فان البخار وآلات العمل الجديدة قد حولت المانيفاكتورة الى صناعة كبيرة عصرية ، ونفخت روح الثورة في جميع اسس المجتمع البرجوازي فسير التطور الكسول في عهد المانيفاكتورة تغير وتحول الى مرحلة حقيقية من العواصف والضغوط في الانتاج . وبسرعة متنامية بلا انقطاع ، انقسم المجتمع الى رأسماليين كبار والى بروليتاريين معدمين ؛ وبينهم ، بدلا من المرتبة المتوسطة المستقرة في الازمنة القديمة ، يعيش الآن حياة غير مستقرة ، جمهور متغير من الحرفيين وصغار التجار ، هذا القسم الاكثر ميوعة من السكان بيد ان اسلوب الانتاج الجديد لم يكنَ الا في البداية من مرحلة تطوره الصاعدة ، كان ما يزال اسلوب الانتاج العادى ،

الصحيح ، الاسلوب الممكن الوحيد بالنظر الى الظروف القائمة ومع ذلك ، كان قد ادى الى نشوء مصائب اجتماعية صارخة تكدس السكان الذين لا ماوى لهم ، في الاطراف الرهيبة القذرة من المدن الكبيرة ؛ انحلال جميع اواصر الاصل الموروثة عن الماضي ، والنمط البطريركي والعائلة ؛ تمديد يوم العمل بشكل رهيب للغاية ، ولا سيما بالنسبة للنساء والاطفال ؛ التفسخ الشامل في معنويات الطبقة الكادحة التي قذف بها فجاة في اوضاع جديدة كل الجدة : من القرية الى المدينة ، من الزراعة الى الصناعة ، من ظروف الحياة المستقرة الى الظروف المتغيرة يومياً وغير المضمونة . وآنذاك ، ظهر مصلح ، ظهر صناعي في التاسعة والعشرين من عمره ، ظهر رجل كان يجمع بين صفاء الطفل ونبله وبين قدرة على قيادة الناس لم يملكها الا قلة من الناس . كان روبرت اوين قد استوعب مذهب المنورين الماديين وتبناه ، وهو المذهب القائل ان طبع الانسان هو ، من جهة ، نتاج تركيبه الجسماني منذ ولادته ، ومن جهة اخرى ، نتاج الظروف التي تحيط به اثناء حياته وبخاصة اثناء مرحلة نموه ان معظم اخوته في المنزلة الاجتماعية لم يروا في الثورة الصناعية سوى بلبلة وفوضى ، تتيحان لهم الاصطياد في الماء العكر والاثراء بسرعة . اما هو ، فقد رأى في هذه الثورة الصناعية فرصة مناسبة لادخال النظام في هذه الفوضى ، وذلك بتطبيق فكرته المفضلة . وكان قد قام بتجربة تطبيقها في مانشستر ، في معمل يضم اكثر من ٥٠٠ عامل وكان هو مديره ، وحالفه التوفيق في تجربته هذه ومن ١٨٠٠ الى ١٨٢٩ كان يدير معملا كبيراً لغزل القطن في نيو-لانارك ، باسكتلنده ، وقد عمل هنا ، بوصفه مديراً وشريكاً ، في نفس الاتجاه ، ولكن بمزيد من الحرية وبنجاح سرعان ما جعل اسمه مشهوراً في اوروبا كلها .

فقد حول سكان نيو-لانارك الذين بلغ عددهم تدريجيا ٢٥٠٠ شخص وتالفوا في البداية من عناصر شتى ، معظمها من العناصر المتفسخة المنهارة معنوياتها ، الى مستعمرة نموذجية لا تعرف السكر والبوليس والقضاء الجنائي والدعاوى والجمعيات الخيرية والحاجة الى الاحسان الفردي وقد توصل الى ذلك لانه وضع الناس في ظروف اجدر بالانسان ، ولانه اعتنى على الخصوص بتربية الجيل الناشئ تربية صالحة . وفي نيو-لانارك اقيمت لاول مرة مدارس للاطفال الصغار وكانت من بنات افكار اوين . كانت هذه المدارس تقبل الاطفال ابتداء من الثانية من العمر ، وفيها كانوا يمضون الوقت بدرجة من المتعة بحيث كان من الصعب اعادتهم الى البيت وقد خفض اوين ساعات العمل في نيو-لانارك الى ١٠ ساعات ونصف الساعة بينما كان مزاحموه يجبرون العمال على العمل ١٣ و١٤ ساعة في اليوم . وخلال ازمة قطنية توقف الانتاج من جرائها اربعة اشهر ، ظل اوين يدفع لعماله غير المشغولين اجرة كاملة . ومع ذلك زادت قيمة المؤسسة الى اكثر من الضعفين وظلت تدر لاصحابها ، طوال الوقت ، ارباحا طائلة .

غير ان اوين لم يكتف بكل ذلك فان ظروف الحياة التي وفرها لعماله كانت ، في نظره ، ابعد من ان تكون جديرة بالانسان . وقد قال :

«كان هؤلاء الناس عبيدي» ،

فالظروف الملائمة نسبيا التي احاط بها عمال نيو-لانارك كانت ما تزال ابعد من ان تتيح تطور طبائعهم وعقولهم تطورا كاملا عقلانيا وابعد بالاحرى من ان تتيح النشاط الحيوي الحر .

«ومع ذلك كان القسم الكادح من هؤلاء الـ ٢٥٠٠ انسان ينتج من الثروة الفعلية للمجتمع قدر ما كان بوسع ٦٠٠ انسان ان ينتجوه منذ اقل من نصف قرن . ولقد تساءلت : اين صار الفرق بين الثروة

التي يستهلكهـا هؤلاء الـ ٢٥٠٠ وبين الثروة التي كان سيستهلكهـا الـ ٦٠٠٠٠٠ ؟»

كان الجواب واضحـا فقد ذهب هذا الفرق لدفع فائدة قدرها ٥ بالمئة لاصحاب المعمل لقاء الرأسمال الموظف في هذا المعمل ، بالاضافة الى ربح زاد على ٣٠٠ جنيه سترليني (٦٠٠٠٠٠٠ مارك) . وما كان صحيحا بالنسبة لمعمل نيو-لانارك كان صحيحا بالاحرى بالنسبة لجميع معامل انجلترا

«ولولا هذه الثروة الجديدة التي خلقتها الآلات ، لما كان بالامكان خوض الحروب لاسقاط نابليون ، وفي سبيل الحفاظ على مبادئ تنظيم المجتمع الاريستقراطية والحال ان هذه القوة الجديدة كانت من صنع الطبقة الكادحة» * .

ولذا ، كان ينبغي ان تعود ثمار هذه القوة الى الطبقـة الكادحة ان القوى المنتجة الجديدة الجبارة التي لم تقم حتى ذاك الا باغناء الاقلية وباستعباد الجماهير ، غدت تكوّن ، بنظر اوين ، الاسس اللازمة لاعادة تنظيم المجتمع ، وكان المطلوب منها ان تعمل فقط في سبيل رفاهية الجميع العامة بوصفها ملك الجميع

من هذه الاسس العملية الصرف ، التي هي ، اذا جاز القول ، نتيجة حساب تجاري ، ولدت شيوعية اوين . وقد حافظت دائما وفي كل مكان على طابعها العملي هذا ففي ١٨٢٣ ، مثلا ، وضع اوين مشروعا لازالة البؤس الارلندي بانشاء مستعمرات شيوعية ، وارفق هذا المشروع بحسابات مفصلة حول الرأسمال الذي يجب

---

* من مذكرة اسمها «الثورة في العقول وفي التطبيق» ، وجهت الى جميع «الجمهوريين الحمر ، الشيوعيين والاشتراكيين في اوروبا» ، وارسلت الى الحكومة المؤقتة الفرنسية في عام ١٨٤٨ ، وكذلك الى «الملكة فكتوريا ومستشاريها المسؤولين» .

توظيفه والنفقات السنوية ، والمداخيل المحتملة وقد وضع اوين مشروعه النهائي للنظام المقبل بكل التفاصيل التكنيكية ، بما فيها المسقط الافقي والواجهة والمنظر من الجو ، بقدر من المعرفة العملية ، الى حد اننا ، اذا سلمنا بطريقته لتحويل المجتمع ، لا نجد الا تفاصيل قليلة جداً يمكن الاعتراض عليها ، حتى من وجهة نظر الاختصاصي .

كان انتقال اوين الى الشيوعية نقطة الانعطاف في حياته فطالما اقتنع بدور المحب والمحسن للبشر ، كان جنـــاه الثروة والشهرة ، والاجلال والتحبيذ كان الرجل الاوفـــر شعبية في اوروبا . فلم يكن اخوته في المنزلة الاجتماعية وحدهم يصغون اليه ، بل كان رجال الدولة والملوك ايضاً يصغون اليه بعطف ولكن ما ان تقدم بنظرياته الشيوعية حتى تغير الامر تماماً كان يرى ان ثلاث عقبات كبيرة تحول دون تحويل المجتمع ، هي الملكية الخاصة ، والدين ، والشكل الحالي للزواج . وعندما اخذ يقارع هذه العقبات ، كان يعرف ما ينتظره : نبذه عن المجتمع الرسمي ، وفقدان مركزه الاجتماعي . ولكن هذه الاعتبارات لم تستطع ان توقف اوين ولم تضعف عزيمته في هجومه الباسل . وكل ما توقعه حصل . فقد اقصي عن المجتمع الرسمي ، وحاكت الصحافة حوله مؤامرة الصمت وضحى بكل ثروته في تجاربه الشيوعية الفاشلة في اميركا ، وكان نصيبه منها الخراب والافلاس فتوجه مباشرة الى الطبقة العاملة وواصل نشاطه في بيئة هذه الطبقة مدة ثلاثين سنة اخرى . وكانت جميع الحركات الاجتماعية التي تحققت لمصلحة الطبقة العاملة في انجلترا وجميع منجزاتها الحقيقية ترتبط باسم اوين . ففي ١٨١٩ ، بعد خمس سنوات من جهوده ، سن اول قانون يحدد ساعات عمل النساء والاطفال في المعامل . وراس

اول مؤتمر اتحدت فيه تريديونيونات انجلترا كلها في نقابة عامة واحدة كبيرة (٧٦) وبمثابة تدابير انتقالية تؤدي الى النظام الاجتماعي الشيوعي التام ، نظّم ، من جهة ، جمعيات الانتاج والاستهلاك التعاونية التي اثبتت على الاقل عمليا ، فيما بعد ، انه من الممكن تماما الاستغناء عن التجار والصناعيين على السواء ؛ ومن جهة اخرى ، اسواقا عمالية من اجل تبادل منتجات العمل بوساطة اوراق العمل النقدية التي كانت وحدة قيمتها ساعة من وقت العمل (٧٧) . كان لا بد لهذه الاسواق ان تمنى حتما بالاخفاق ، ولكنها كانت سابقة لمصرف التبادل (٧٨) الذي قال به برودون فيما بعد بوقت طويل ، وكانت تختلف عن هذا المصرف بكونها لم تعرض بوصفها الدواء الشافي الشامل لجميع الشرور الاجتماعية ، بل بوصفها الخطوة الاولى نحو تحويل المجتمع بصورة اكثر جذرية بكثير .

وكان نمط تفكير الطوبويين يعلو وقتا طويلا على الآراء الاشتراكية في القرن التاسع عشر وما يزال متفوقا جزئيا حتى الآن . فحتى الاونة الاخيرة ظل جميع الاشتراكيين الفرنسيين والانجليز متمسكين به وكذلك الشيوعية الالمانية السابقة بمن فيها ويتلينغ . فالاشتراكية بنظرهم جميعا هي التعبير عن حقيقة مطلقة ، هي التعبير عن العقل والعدالة ؛ ويكفي اكتشافها حتى تقهر العالم كله بقوتها نفسها . ولكن بما ان الحقيقة المطلقة ليست رهنا بالزمان والمكان وتطور الانسانية التاريخي ، فان معرفة زمان ومكان اكتشافها امر متروك للصدفة . هذا فضلا عن ان مؤسسي المدارس لا ينظرون النظرة نفسها الى الحقيقة المطلقة والعقل والعدالة ؛ فالشكل الخاص الذي تبرز فيه الحقيقة المطلقة والعقل والعدالة عند كل من مؤسسي المدارس مشترط بطريقة تفكره

الذاتية وشروط معيشته ومدى معارفه ودرجة تطور فكره . فاذا ما تجابهت مثل هذه الحقائق المطلقة ، فلا يمكن حل النزاع فيما بينها الا بالتخفيف من حدة تناقضاتها . ولذا لم يكن بالامكان ان يؤدي كل ذلك الا الى اشتراكية اختيارية غامضة لا تزال سائدة فعلا حتى الآن في اذهان معظم العمال الاشتراكيين في فرنسا وانجلترا وهذه الاشتراكية الاختيارية عبارة عن خليط من ملاحظات انتقادية اكثر اعتدالا ، وموضوعات ومفاهيم اقتصادية يقول بها مختلف مؤسسي الشيع حول المجتمع المقبل ـ خليط يسمح بوجود تلاوين مختلفة للغاية ، ومن السهل الحصول عليه خصوصـــا وان عناصره تفقد في مجرى المجادلات والمناظرات العديدة زواياها الحادة والناتئة كالحصى في مسيل من الماء . فلاجل تحويل الاشتراكية الى علم كان ينبغي قبل كل شيء وضعها على صعيد واقعي .

٢

وفي خلال ذلك ، نشأت الى جانب الفلسفة الفرنسية من القرن الثامن عشر وعلى اثرها ، الفلسفة الالمانية الحديثة التي تتوجت بهيغل . ومأثرتها الكبرى انها عادت الى الديالكتيك بوصفه الشكل الاعلى للفكر لقد كان الفلاسفة اليونانيون القدماء جميعَهـــم ديالكتيكيين عفويين وبالفطرة ، وقد سبق لارسطو ، وهو اوسعهم معرفة واطلاعا ، ان حلل الاشكال الاساسية للفكر الديالكتيكي اما الفلسفة الجديدة ، رغم ان الديالكتيك وجد له فيها ممثلين لامعين (مثلا ، ديكارت وسبينوزا) ، فقد كانت تغرق اكثر فاكثر ، ولا سيما تحت تاثير الفلسفة الانجليزية ، في طريقة التفكير المسماة بالطريقة الميتافيزيائية ، التي سادت بوجه الحصر تقريبا بين

الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، على الاقل في مؤلفاتهم الفلسفية الصرف الا انهم استطاعوا هم ايضاً ، في خارج نطاق الفلسفة بحد ذاتها ، ان ينتجوا تحفاً ديالكتيكية ، — ولن نذكر منها غير «ابن اخ رامو» لديدرو و«الخطاب حول منشأ التفاوت بين الناس واسسه» لروسو — ، وفيما يلي نعطي لوحة موجزة عن جوهر هاتين الطريقتين في التفكير .

عندما نخضع الطبيعة ، او تاريخ البشر ، او نشاطنا الروحي ، للمراقبة الفكرية ، فان ما يبدو امامنا بادئ بدء ، انما هو صورة تشابك غير متناه لاتصالات وترابطات ، حيث لا يبقى اي شيء ساكناً ، غير متغير ، بل حيث كل شيء يتحرك ، ويتحول ، ويصير ، ويزول . وعلى هذا النحو ، نرى اولا لوحة عامة لا تزال تتراجع فيها التفاصيل بهذا القدر او ذاك الى المؤخرة ، فنولي الحركة والانتقالات والروابط من الانتباه اكثر مما نوليه لها يتحرك وينتقل ويترابط . ان هذه الطريقة في رؤية العالم ، هي طريقة بدائية ، ساذجة ، ولكنها صحيحة في الاساس ، انها طريقة الفلسفة اليونانية القديمة . وكان هيراكليت اول من صاغها بوضوح : كل شيء موجود وغير موجود ، لان كل شيء يتحول ، لان كل شيء في تغير ابدي ، في صيرورة ابدية ، في زوال ابدي . ولكن ، رغم ان هذه الطريقة في رؤية العالم تعبر بصورة صحيحة عن الطابع العام لكل لوحة الظاهرات ، الا انها غير كافية لتفسير التفاصيل التي تتكون منها هذه اللوحة ؛ وطالما لا نعرف هذه التفاصيل ، لا نرى اللوحة العامة بوضوح فلاجل معرفة هذه التفاصيل ، نضطر الى ان ننتزعها من علاقتها الطبيعية او التاريخية ، والى ان نحللها كلا بمفرده ، من حيث صفاتها واسبابها ومفاعيلها ، الخ . وتلك هي ، قبل كل شيء ، مهمة علم الطبيعة والدراسة

التاريخية ، اي مهمة فرعين من العلم لم يكونا يشغلان ، لاسباب جد وجيهة ، الا المرتبة الثانية عند اليونانيين في الازمنة الكلاسيكية ، اذ كان ينبغي على هؤلاء بادئ بدء ان يجمعوا المواد اللازمة فلم يكن من الممكن الشروع بالاختيار الانتقادي والمقارنة ، والتقسيم بالتالي الى طبقات واصناف وانواع الا بعد ان يتم ، بدرجة معينة ، جمع المواد المتعلقة بعلم الطبيعة والتاريخ ولهذا فان بواكير دراسة الطبيعة دراسة دقيقة لم يطورها ، لاول مرة ، الا اليونانيون في العهد الاسكندري (٧٩) ، وفيما بعد ، العرب في القرون الوسطى . اما بداية علم الطبيعة الحقيقي فلا تعود الا الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وقد تقدم مذ ذاك بسرعة متزايدة . وقد كان تقسيم الطبيعة الى اجزائها المنفردة ، وتقسيم مختلف الظاهرات والاشياء الطبيعية الى فئات معينة ، ودراسة التركيب الداخلي للاجسام العضوية حسب اشكالها التشريحية المتنوعة ، كل هذا كان الشرط الاساسي للنجاحات الهائلة التي احرزت ، خلال الاربعمئة سنة الاخيرة ، في ميدان معرفة الطبيعة . ولكن طريقة الدراسة هذه خلفت لنا عادة دراسة الاشيـــاء والظاهرات الطبيعية منعزلة ، منفردة ، خارج علاقتها الكبرى العامة ، كما خلفت ، بالتالي ، عادة النظر الى الاشياء والظاهرات ، لا من حيث حركتها ، بل من حيث سكونها ، لا من حيث انها متغيرة في الاساس ، بل من حيث هي مستقرة ابداً ودائما ، لا من حيث حياتها ، بل من حيث موتها . وعندما حدث ان انتقلت طريقة النظر هذه من العلوم الطبيعية الى الفلسفة بفضل باكون ولوك ، ادت هذه الطريقة الى ضيق الافق الذي امتازت به القرون الاخيرة ، ادت الى طريقة التفكير الميتافيزيائية .

ان الاشياء وانعكاساتها الفكرية ، اي المفاهيم ، هي ، بنظر الميتافيزيائي ، اغراض منفردة ، ثابتة ، جامدة ، اعطيت مرة

واحدة وبصورة نهائية ، اغراض تنبغي دراستها الواحد بعد الآخر ، الواحد دون الآخر . وهو يفكر بموضوعات متضادة مجردة من كل موضوعة وسيطة . انه يقول : «نعم – نعم ، لا – لا ؛ وما زاد على ذلك – فهو من الشرير» * . وحسب رأيه ، يكون الشيء موجوداً او غير موجود ، ولا يمكن للشيء ان يكون في آن واحد هو بالذات وشيئاً آخر ؛ والسلبي والايجابي ينفي احدهما الآخر ، بصورة مطلقة . والسبب والمفعول في تضاد جامد احدهما للآخر

ان طريقة التفكير هذه تبدو لنا ، من اول نظرة ، في اقصى حدود المعقول ، لانها طريقة تلازم العقل البشري السليم . ولكن العقل البشري السليم ، هذا الرفيق الجدير بالاحترام البالغ ما دام قابعاً في عقر داره ، يمر بمغامرات طريفة جداً ما ان يتجرأ ويخرج الى ارحاب الدراسة . ورغم ان طريقة التفكير الميتافيزيائيـــة طبيعية ، وحتى ضرورية في عدد من الميادين المتفاوتة الاتساع وفقاً لطابع الغرض ، الا انها تصل ، عاجلا ام آجلا ، الى حد تفقد معه ، اذا تجاوزته ، وحيدة الجانب ، ضيقة الافق ، مجردة ، وتضيع في تناقضات لا حل لها . وهي ، اذ تتامل الاشياء المنفردة ، لا ترى علاقاتها المتبادلة ، واذ تتامل وجودها لا ترى صيرورتها وزوالها ، وتنسى حركتها لانها ساكنة ، فالاشجار تمنعها من رؤية الغابة . اننا نعرف ، مثلا ، في الحياة اليومية ونستطيع ان نقول ، بما فيه الكفاية من الثقة ، اذا كان حيوان ما موجوداً ام لا . ولكن التعمق في البحث يرينا ان هذه القضية هي في كثير من الحالات ، من اشد القضايا تعقيداً وغموضاً ، كما يعرف ذلك جيداً جداً

---

* الكتاب المقدس . العهد الجديد . انجيل متى ، الفصل ٥ ، الآية ٣٧ . الناشر .

الحقوقيون الذين بذلوا عبثاً قصارى جهدهم لايجاد حد عقلاني يصبح فيما وراءه القضاء على طفل في بطن امه جريمة قتل كذلك يستحيل تحديد لحظة الوفاة لان علم الفيزيولوجيا يثبت ان الوفاة ليست بظاهرة فورية ، آنية ، بل عملية طويلة الامد . كذلك كل كائن عضوي هو ، في كل لحظة معينة ، ذاته وكائن آخر ؛ فهو في كل لحظة ، يهضم مواد يتلقاها من الخارج ويفرز مواد اخرى ، وفي كل لحظة ، تموت خلايا من جسمه وتولد خلايا اخرى ؛ وبعد فترة قد تطول او تقصر ، تتجدد مادة جسمه بكليتها ، وتحل محلها ذرات اخرى من المادة ولهذا السبب كان كل كائن عضوي هو دائما ذاته وغير ذاته . واذا نظرنا الى الامور بمزيد من الامعان ، تبين لنا ان قطبي تضاد واحد - الايجابي والسلبي مثلا - لا ينفصل احدهما عن الآخر بقدر ما هما متضادان ، وانهما يتداخلان ويتشابكان رغم كل تضادهما ثم نرى كذلك ان السبب والمفعول تصوران لا قيمة لهما الا عند تطبيقهما على حالات منعزلة معينة ؛ ولكن ، ما ان ننظر الى هذه الحالة المنعزلة في علاقاتها العامة مع باقي الكون ، حتى يختلطان ويتشابكان في تفاعل متسلسل شامل ، حيث السبب والمفعول يغيران مكانهما باستمرار ، حيث ما كان سبباً في مكان معين ولحظة معينة يغدو مفعولا في مكان آخر ولحظة اخرى ، والعكس بالعكس .

ان جميع هذه التفاعلات وجميع طرائق التفكير هذه لا تدخل في نطاق الفكر الميتافيزيائي . اما الديالكتيك ، الذي يتلخص الامر الجوهري بالنسبة له في انه يرى الى الاشياء وانعكاساتها الذهنية ، بصورة رئيسية ، من حيث صلاتها المتبادلة ومن حيث تشابكها ، من حيث حركتها ، من حيث صيرورتها وزوالها - فان التفاعلات المذكورة اعلاه لا تثبت ، بالعكس ، الا طريقته الخاصة في

الدراسة . والطبيعة هي محك الديالكتيك ؛ وينبغي علينا ان نقول ان العلوم الطبيعية الحديثة قدمت لهذا المحك مواد جيدة تتزايد يوماً بعد يوم ، وانها اثبتت بواسطة هذه المواد ان الديالكتيك ، لا الميتافيزياء ، هو الذي ، في آخر تحليل ، يسود في الطبيعة ، وان الطبيعة لا تتحرك في حلقة وحيدة الشكل الى الابد وتتكرر ابداً ودائماً ، بل تمر بتاريخ فعلي . وهنا تجدر الاشارة قبل كل شيء الى داروين الذي سدد ضربة في غاية الشدة الى النظرة الميتافيزيائية الى الطبيعة حين برهن ان العالم العضوي الحالي كله ، اي النباتات والحيوانات ، وبالتالي الانسان ايضاً ، هو نتاج تطور مستمر منذ ملايين السنين . ولكن ، لما كان علماء الطبيعة الذين تعلموا كيف يفكرون بصورة ديالكتيكية يعدون على الاصابع ، فان هذا النزاع بين النتائج الحاصلة وبين طريقة التفكير التقليدية يفسر تماماً الفوضى البالغة التي تسود في نظريات علم الطبيعة وتبعث اليأس في نفوس الاساتذة والطلاب على السواء ، في نفوس الكتاب والقراء على السواء .

وهكذا ، فان تصور الكون وتطوره وتطور الانسانية وكذلك انعكاس هذا التطور في عقول الناس تصوراً دقيقاً لا يمكن القيام به الا عن طريق الديالكتيك ، الا عن طريق اجراء مراقبة دائبة للتفاعلات العامة بين الصيرورة والزوال ، بين التقدم والانحطاط في هذا السبيل بالذات ، دخلت الفلسفة الالمانية الحديثة منذ البدء . وقد بدأ كانط نشاطه العلمي بان حول النظام الشمسي الذي قال به نيوتن ، النظام الثابت ، السرمدي ، وغير المتغير — بعد الدفعة الاولى المزعومة — الى عملية تاريخية الى عملية نشوء الشمس وجميع الكواكب من كتلة ضبابية في دوران . وفي الوقت نفسه ، قاده نشوء النظام الشمسي الى الاستنتاج انه لا بد لهذا

النظام ان يزول يوما من الايام . وقد اثبت لابلاس صحة وجهة النظر هذه بصورة رياضية ، بعد نصف قرن ؛ ثم جاء المطياف ، بعد نصف قرن آخر ، فاثبت وجود كتل غازية متاججة مماثلة في الفضاء ، ومختلفة من حيث درجة التكاثف .

وهذه الفلسفة الالمانية الحديثة وجدت خاتمتها في منهج هيغل ، الذي تتلخص مآثرته الكبرى في انه صور العالم باسره ، الطبيعي والتاريخي والروحي ، للمرة الاولى ، على انه عملية ، اي حركة دائمة وتحول دائم وتطور دائم ، وفي انه قام بمحاولة اكتشاف الصلة الداخلية لهذه الحركة وهذا التطور . ومن وجهة النظر هذه ، لم يعد التاريخ البشري يبدو خليطا وفوضى من اعمال العنف الخرقاء التي لا تستحق غير الشجب والنسيان السريع امام محكمة العقل الفلسفي الذي نضج الآن ، بل برز ، بالعكس ، بمثابة تطور الانسانية نفسها ، وغدت قضية الفكر تتقوم الآن في اتباع سير هذا التطور في جميع مراحله المتتالية عبر جميع انحرافاته وتعرجاته وفي تقديم الدليل على وجود قانونه الداخلي بين جميع المصادفات الظاهرية .

الا يكون منهج هيغل قد حل هذه القضية التي طرحها امام نفسه ، فذلك امر لا يهمنا ؛ فان مآثرته التاريخية هي انه طرح هذه القضية ان هذه القضية هي من القضايا التي لن يستطيع اي فرد ان يحلها بمفرده . وبالرغم من ان هيغل كان ، مع سان سيمون ، اوفر اهل زمانه معرفة وعلما واطلاعا ، الا انه كان مع ذلك ضيق الافق ، اولا من حيث مدى معارفه المحدود بالضرورة ، وثانيا من حيث مدى معارف ونظرات عصره ، المحدودة ايضا سعة وعمقا . وفضلا عن ذلك ، كان هيغل مثاليا ، اي ان افكار راسنا لم تكن ، في نظره ، انعكاسات للاشياء والعمليات

الواقعية مجردة نوعا ، بل ، بالعكس كانت الاشياء وتطورها ، في نظر هيغل ، انعكاسات متجسدة « لفكرة » ما كانت موجودة قبل نشوء العالم في مكان ما وبذلك قلب كل شيء رأسا على عقب وشوهت تماما الصلة الفعلية بين ظاهرات الكون . ولهذا كان لا بد لمنهج هيغل ، رغم تفهمه بفائق الصحة والعبقرية بعض الصلات الفردية بين الظاهرات ، من ان يبدو حتما في كثير من جوانبه ، للاسباب المنوه بها ، متكلفا ، مصطنعا ، ملفقا ، اي مشوها . فكان منهج هيغل ، بوصفه منهجا ، طرحا هائلا ، ولكنه الطرح الاخير من نوعه . وفضلا عن ذلك ، كان هذا المنهج ينطوي على تناقض داخلي لا شفاء له . فمن جهة ، كانت مقدمته الجوهرية تتلخص في النظر الى تاريخ الانسانية بوصفه عملية تطور لا يمكن لها ، بحكم طبيعتها بالذات ، ان تبلغ خاتمتها العقلية في اكتشاف حقيقة مطلقة مزعومة ؛ ولكن منهجه يدّعي ، من جهة اخرى ، بأن يكون خاتمة هذه الحقيقة المطلقة .ان منهجا لمعرفة الطبيعة والتاريخ يشمل كل شيء وموضوعا مرة واحدة بصورة نهائية يتناقض مع قوانين الفكر الديالكتيكي الاساسية ، الامر الذي لا ينفي ، بل يفترض ، بالعكس ، ان معرفة العالم الخارجي قاطبة ، بداب وانتظام ، يمكن لها ان تخطو خطوات الجبابرة الى امام من جيل الى جيل .

ان ادراك الواقع التالي وهو ان المثالية الالمانية القائمة هي كاذبة تماما ، قد ادى ، لا محالة ، الى الماديـــة ؛ ولكن تجب الاشارة الى انها لم تكن مجرد مادية القرن الثامن عشر الميتافيزيائية ، والميكانيكية بوجه الحصر . فخلافا لمجرد نبذ التاريخ السابق كله بصورة ثورية ساذجة ، ترى المادية الحديثة في التاريخ عملية تطور الانسانية ، وتعتبر انه يترتب عليها ان تكتشف قوانين هذه

العملية لقد كان فرنسيو القرن الثامن عشر ، وكذلك هيغل ، يتصورون الطبيعة كلا لا يتغير ، كلا يتحرك ضمن حلقات ضيقة تبقى هي ذاتها ، كلا ذا اجرام سماوية خالدة ، كما يعلم نيوتن ، وذا انواع لا تتغير من الكائنات العضوية ، كما يعلم لينه . وخلافا لهذا التصور عن الطبيعة ، تعمم المادية الحديثة المكتسبات الاخيرة في العلوم الطبيعية التي تقول ان للطبيعة ايضا تاريخها في الزمن ، وان الاجرام السماوية تنشأ وتزول مثلما تنشأ وتزول جميع الانواع من الاجسام العضوية التي تعيش في هذه الاجرام اذا توافرت الشروط الملائمة ، وان حلقات الدوران ، اذا وجدت ، تتسع الى ما لا يقاس . والمادية الحديثة ، في الحالتين ، ديالكتيكية من حيث الجوهر والاساس ، ولا تحتاج الى فلسفة قائمة فوق جميع العلوم الاخرى . وما ان يضطر كل علم من العلوم الى تحديد مكانه في الصلة العامة للاشياء والمعارف عن هذه الاشياء ، حتى يغدو العلم الخاص بهذه الصلة العامة لا لزوم له . وحينذاك لا يبقى ، من الفلسفة السابقة كلها ، غير مذهب واحد مستقل هو مذهب الفكر وقوانينه ـ المنطق الاستقرائي والديالكتيك . اما الباقي كله فيدخل في العلم الايجابي عن الطبيعة والتاريخ .

وبينا الانقلاب في المفهوم عن الطبيعة لم يستطع ان يجري الا بقدر ما كانت الابحاث تقدم المواد الايجابية لاجل المعرفة ـ طرأت احداث تاريخية قبل ذلك بكثير ، ادت الى انقلاب حاسم في المفهوم عن التاريخ . ففي ١٨٣١ ، نشبت اول انتفاضة عمالية في ليون ؛ ومن ١٨٣٨ الى ١٨٤٢ ، بلغت اول حركة وطنية عمالية ، حركة الشارتيين الانجليز ، الذروة . وبرز النضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية على مقدمة المسرح في تاريخ اكثر البلدان الاوروبية تطوراً ، وذلك بقدر ما كانت تتطور فيها ، من

جهة ، الصناعة الكبيرة ، ومن جهة اخرى ، السيطرة السياسية التي احرزتها البرجوازية حديثا وجاءت الوقائع تظهر بصورة اوضح فاوضح كل كذب مذهب الاقتصاد السياسي البرجوازي القائل بوحدة مصالح الراسمال والعمل ، والانسجام الشامل ، ورفاه الشعب العام المتولدين عن حرية المزاحمة ولم يكن بالمستطاع تجاهل كل هذه الوقائع ، ولا تجاهل الاشتراكية الفرنسية والانجليزية التي كانت ، رغم نواقصها وعيوبها ، التعبير النظري عن هذه الوقائع ولكن المفهوم المثالي القديم الذي كان ما يزال قائما حول التاريخ ، لم يكن يعرف ، لا النضال الطبقي القائم على مصالح مادية ، ولا اية مصلحة مادية ؛ ولم يذكر الانتاج وجميع العلاقات الاقتصادية الا بصورة عابرة ، الا بوصفها العناصر الثانوية «لتاريخ المدنية»

وقد فرضت الوقائع الجديدة القيام بدراسة جديدة لكل التاريخ الماضي ، وحينذاك تبين ان التاريخ الماضي كله ، باستثناء الحالة البدائية ، لم يكن سوى تاريخ النضال بين الطبقات ، وان هذه الطبقات الاجتماعية المتناضلة كانت ، في كل لحظة معينة ، نتاجات علاقات الانتاج والتبادل ، اي نتاجات العلاقات **الاقتصادية** في عصرها ؛ وتبين ، بالتالي ، ان التركيب الاقتصادي للمجتمع في كل مرحلة معينة يشكل الاساس الفعلي الذي يفسر به ، في نهاية الامر ، كل البناء الفوقي من المؤسسات الحقوقية والسياسية والآراء الدينية والفلسفية وغيرها من الآراء الملازمة لهذه المرحلة التاريخية المعنية . وقد حرر هيغل مفهوم التاريخ من الميتافيزياء ، وجعله ديالكتيكيا ، ولكن فهمه هو للتاريخ كان من حيث الجوهر مثاليا اما الآن ، فقد طردت المثالية من ملجئها الاخير ، من مفهوم التاريخ ؛ ووضع مفهوم مادي للتاريخ ، ووجد الطريق

لتفسير تفكير الناس بطريقة حياتهم ، بـدلا من تفسير حياتهم بطريقة تفكيرهم ، كما جرى حتى ذلك الحين .

ولهذا لم تعد تبدو الاشتراكية الآن اكتشافا حققه من قبيل الصدفة هذا العقل العبقري او ذاك ، بل صارت تبدو نتيجة ضرورية للنضال بين الطبقتين الناشئتين تاريخيا ، البروليتاريا والبرجوازية . ولم تبق مهمتها ابتداع نظام اجتماعي على اكثر ما يمكن من الكمال ، بل غدت دراسة التطور الاقتصادي التاريخي الذي ادى بالضرورة الى نشوء هاتين الطبقتين والى نشوء الصراع بينهما ، وايجاد الوسائل في الوضع الاقتصادي الناجم عن هذا التطور ، من اجل تسوية النزاع . ولكن الاشتراكية السابقة لم تكن متلائمة مع هذا الفهم المادي للتاريخ مثلما كان فهم الماديين الفرنسيين للطبيعة غير متلائم مع الديالكتيك ومع علم الطبيعة الحديث صحيح ان الاشتراكية السابقة كانت تنتقد اسلوب الانتاج الرأسمالي القائم وعواقبه ، ولكنها لم تكن تستطيع ان تفسره ، ولذا لم يكن بوسعها ان تتغلب عليه – فلم يكن بوسعها الا ان تعلن انه غير صالح اطلاقا . ولكن ، بقدر ما كان يشتد استياء هذه الاشتراكية لاستثمار الطبقة العاملة المحتم في ظل اسلوب الانتاج هذا ،بقدر ما كان يزداد عجزها عن تفسير قوام هذا الاستثمار واسباب نشوئه تفسيراً واضحا ولكن القضية كانت تقوم اولا في تفسير حتمية نشوء اسلوب الانتاج الرأسمالي في علاقته التاريخية ، واثبات ضرورته في مرحلة تاريخية معينة ، وبالتالي حتمية زواله ؛ وكانت القضية تقوم ثانيا في الكشف عن الطابع الداخلي الذي يصف اسلوب الانتاج هذا والذي لا يزال مخفيا . وقد تم ذلك باكتشاف **القيمة الزائدة** . فقد اعطى الدليل على ان الاستئثار بالعمل غير المدفوع الاجر هو الشكل الاساسي

لاسلوب الانتاج الرأسمالي ولاستثمار العمال الملازم له ؛ وعلى ان الرأسمالي ، حتى حين يشتري قوة العمل حسب قيمتها الكاملة في السوق بوصفها بضاعة ، انما يبتز مع ذلك منها قدراً من القيمة يفوق ما دفعه في سبيل الحصول عليها ، وعلى ان هذه القيمة الزائدة تشكل ، في آخر المطاف ، مجموع القيم التي تنجم عنها كمية الرأسمال النامية بلا انقطاع ، والمتراكمة في ايدي الطبقات المالكة . وعلى هذا النحو ، وجدت عملية الانتاج الرأسمالي تفسيراً لها ، وكذلك انتاج الرأسمال .

ان هذين الاكتشافين العظيمين ، ونعني بهما المفهوم المادي عن التاريخ ، والكشف عن سر الانتاج الرأسمالي بواسطة القيمة الزائدة ، انما نحن مدينون بهما لماركس . فبفضل هذين الاكتشافين اصبحت الاشتراكية علما ، وتتلخص القضية الآن ، قبل كل شيء ، في صياغته باطراد بجميع تفاصيله وعلاقاته المتبادلة .

٣

ان الفهم المادي للتاريخ ينطلق من الموضوعة القائلة ان انتاج المنتجات اولا ، ثم تبادلها ، يشكلان اساس كل نظام اجتماعي ، وانه في كل مجتمع معني يدخل حلبة التاريخ يتحدد توزيع المنتوجات ، ومعه انقسام المجتمع الى طبقات او الى فئات ، بما يجري انتاجه وبكيفية انتاجه وبكيفية تبادل هذه المنتوجات . ولذا اذا شئنا ان نجد الاسباب التي تحدد التغيرات الاجتماعية والانقلابات السياسية ، وجب علينا ان نبحث عنها ، لا في رؤوس الناس ، لا في معرفتهم المتنامية عن الحقيقة والعدالة الخالدتين ، بل في تحولات اسلوب الانتاج والتبادل ؛ اي انه يجب

ان نبحث عن هذه الاسباب ، لا في الفلسفة ، بل في اقتصاد العهد المعني . واذا ما اخذ المرء يفهم ان المؤسسات الاجتماعية القائمة هي غير عقلانية وغير عادلة ، وان «ما كان من صنع العقل غدا مخالفاً للعقل ، وان ما كان نعمة غدا عذاباً» • فان هذا يعني انه قد طرات ، خلسة ، تحولات على اساليب الانتاج واشكال التبادل لم يعد ينطبق عليها النظام الاجتماعي المكيف وفقا لاوضاع اقتصادية قديمة . وينجم عن ذلك ايضا انه ينبغي لعلاقات الانتاج المتحولة ان تنطوي ، بدرجات متفاوتة من التطور ، على الوسائل اللازمة لازالة ما برز من شرور . ولذا لا ينبغي اختراع هذه الوسائل من الراس ، بل ينبغي اكتشافها بواسطة الراس في وقائع الانتاج المادية الموجودة .

فما هو اذن موقف الاشتراكية الحديثة ؟

يعترف الجميع تقريباً ان النظام الاجتماعي الحالي هو من صنع الطبقة السائدة حالياً ، من صنع البرجوازية فان اسلوب الانتاج الخاص بالبرجوازية ، والذي اطلق عليه ماركس اسم اسلوب الانتاج الرأسمالي ، لم يكن يتلاءم مع امتيازات المناطق ، والفئات الاجتماعية ، ومع العلاقات الشخصية المتبادلة في النظام الاقطاعي . فحطمت البرجوازية النظام الاقطاعي ، لكي تقيم ، على انقاضه ، النظام الاجتماعي البرجوازي ، وسيادة حرية المزاحمة ، وسيادة حرية التنقل ، وسيادة المساواة امام القانون بين مالكي البضائع اي بكلمة سيادة جميع لطافات البرجوازية ومذ ذاك ، افتتح الطريق امام تطور اسلوب الانتاج الرأسمالي تطوراً حراً وما

• غوته «فاوست» ، القسم الاول ، المشهد الرابع («مكتب فاوست») الناشر .